

الصراع الاستعماري البريطاني – الفرنسي في شرق إفريقيا (أعالي النيل نموذجاً)

*The French-English colonial conflict in East Africa**(Upper Nile as a model)*مولاتي بن السبحم^{1*} ، خديجة هابة²¹ جامعة تامنغست (الجزائر)، مخبر الموروث العلمي والثقافي لمنطقة تامنغست bensihamoumoulati@Univ-tam.dz(0009-0007-8758-4019 )² جامعة تامنغست (الجزائر)، habba.khd@gmail.com(0009-0006-6569-1713 )

تاريخ القبول: 2025/03/08

تاريخ الاستلام: 2025/02/02

ملخص:

تتناول هذه الدراسة موضوع التنافس الاستعماري في أعالي النيل حادثة فاشودة 1898م، نموذجاً حيث تطرقت في ثانيا هذه الدراسة للمخططات الفرنسية، وكذا الإنجليزية من أجل بناء إمبراطوريات استعمارية داخل إفريقيا، ثم تطرقت للأوضاع العامة في السودان، وقد ركزت على التصادم الفرنسي الإنجليزي في أزمة فاشودة بدراسة الأزمة ونتائجها، وفي الأخير أشرت للمساعي الدبلوماسية التي ساهمت في الانفراج السلمي للأزمة، وختمت هذه الدراسة بجملة من النتائج.

كما تهدف هذه الورقة البحثية إلى كشف حيثيات التنافس الفرنسي البريطاني شرق إفريقيا، وانعكاس ذلك على الأطراف المتنازعة.

الكلمات المفتاحية: إنجلترا؛ أعالي النيل؛ كيتشنر؛ مارشان؛ فرنسا؛ فاشودة.

Abstract: This study talks about the subject of colonial competition in the Upper Nile through the incident of Fachoda 1898, where we talked about the French plans, as well as the English to control Sudan before the crisis, and then we talked about the general situation in Sudan, and we focused on the French-English collision and this is what we referred to in the element of the meeting Fachoda and the occurrence of the crisis, and in the end we referred to the diplomatic efforts that contributed to the peaceful détente for it, and in conclusion we referred to a number of observations and results on the subject.

This paper aims to clarify the reasons for the French-British rivalry in East Africa, and its reflection on the conflicting parties

Keywords: England؛ Upper Nile؛ Kitchener؛ Marchand؛ France؛ Fachoda

مقدمة

تميز العقد الأخير من القرن التاسع بنشوب العديد من الأزمات وذلك بسبب التنافس الاستعماري الكبير للسيطرة على مناطق النفوذ خاصة في إفريقيا ومن أكبر الأزمات التي كادت تتحول إلى مواجهة عسكرية بين فرنسا وبريطانيا في شرق إفريقيا نجد أزمة منطقة فاشودة الواقعة بأعالي النيل، حيث كان لهذه المنطقة أهمية من الناحية الاستراتيجية وكذا من ناحية ارتباطها الوثيق بمنطقة أعالي النيل والتي طالما شهدت تنافس دولي أوروبي.

وفي ظل هذه الظروف التنافسية الدولية، سعى المشروع الفرنسي إلى ربط كل مستعمراته، برسم خط يربط القارة من الغرب إلى الشرق أي من السنغال إلى جيبوتي، أما المشروع الإنجليزي فكان يهدف إلى اختراق القارة طولاً من شمالها إلى جنوبها للربط بين المستعمرات الانجليزية من كيب تاون إلى القاهرة فكانت نقطة تقاطع المشروعين منطقة فاشودة جنوب السودان المعروفة حالياً بـ "كودوك" والتي تعد المفتاح لتحقيق أهداف كلا المشروعين، وهنا أوشك الصراع على المنطقة أن يتحول إلى تصادم عسكري، كاد أن يعصف بأوروبا لولا المساعي الدبلوماسية التي حالت دون ذلك.

والإشكال المطروح هو إلى أي مدى مثلت منطقة فاشودة ذروة التنافس والصراع الاستعماري بين فرنسا وانجلترا في إفريقيا؟ وما هي مراحل ونتائج الصراع على منطقة فاشودة، إلى أي مدى نجحت المساعي الدبلوماسية في فك أزمة الصراع؟ وكيف أثرت هذه الأزمة على العلاقات الفرنسية الإنجليزية؟

أولاً: موقع فاشودة وأهميته

1. الموقع

إن أراضي جنوب السودان بصفة خاصة لم تكن معروفة لدى الأوروبيين قبل أواخر القرن الثامن عشر، وجل ما عرف عنها كان عن طريق القوافل التجارية المتجهة نحو مصر أما بالنسبة للرحالة الأوروبيين فإن كتاباتهم لم تعطي صورة متكاملة عن المنطقة ففي عام 1790 وصف جيمس بروس Brus الرحلة عبر النيل من الحبشة إلى أسوان والتي زار خلالها مملكة الفونج بسنار، وفي عام 1800 نشر وليم جورج براون أنباء عن رحلته في دارفور وإقامته هناك، وأما في سنتي 1813-1814 فقد قام الرحالة السويسري جون لويس بركهارت برحلة اخترق خلالها المجرى الرئيسي للنيل ثم عبر السودان الشرقي حتى وصل سواكن (ب.م.هولت، صفحة 5)، وبين مصادر منابع النيل وفروعه يقع السودان المصري وهو الربع الشمالي الشرقي من القارة والذي يعد النيل المصدر الوحيد لحيويته وتقدمه، وبواسطته يمكن للتجارة أن تصل للأسواق الخارجية، كما يعد الممر الوحيد للأوروبيين لاختراق المناطق الداخلية من القارة (تشرشل، 2002، صفحة 21).

وتقع فاشودة على النيل الأبيض من الجبلين إلى بحيرة "نو" ومنها على بحر الجبل قرب اللادو على خط 5° من العرض الشمالي تقريبا. ويحدها من الشرق مديرية سنار والحبشة ومن الجنوب أوغندا ومن الغرب كردوفان وبحر الغزال وهي بلاد خصبة للغاية وأهم محصولها الذرة والعاج وريش النعام، ومعظم سكانها سود (شقيير، تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، صفحة 71)

2. الأهمية الاستراتيجية

وبرزت الأهمية الاستراتيجية لفاشودة بصورة واضحة مع أواخر القرن الثامن عشر لذا سعت كل من فرنسا وانجلترا للسيطرة عليها، وأهمية فاشودة ترجع لكونها تسيطر على مجرى النيل الأعلى، وعلى ملتقى بحر الغزال ونهر السوبات بالنيل الأبيض، إلى جانب موقعها على امتدادات الممتلكات الفرنسية شرق القارة (مهدي، 2023، صفحة 639) بحيث كانت الفكرة الشائعة في تلك الفترة (1898) أن السيطرة على منابع النيل والتحكم في توزيع مياهه يكفلان السيطرة على منطقة شرق إفريقيا، ولذا تبلورت الفكرة لدى الفرنسيين للوصول إلى حوض النيل من ممتلكاتهم في إفريقيا الغربية

والوسطى، وأدت هذه الفكرة لمحاولة احتلال فاشودة وعلى هذا الأساس يتم إجبار الانجليز على طرح المسألة المصرية على مؤتمر أوروبي للفصل فيها (الجميل ش.، 2008، صفحة 704).

وفعلا قررت الحكومة الفرنسية في عام 1893 أن يتولى المستكشف الفرنسي (مونتي) Monteil قيادة حملة للوصول إلى فاشودة من الاوبانجي العليا بالكونغو الفرنسي، ورفع العلم الفرنسي عليها، أما بريطانيا فقامت بتأجير المنطقة التي عرفت باسم (حاجز اللادو) لبلجيكا، وهذا لعرقلة الطموحات الفرنسية الرامية للوصول إلى فاشودة، هذا الإجراء عبر عنه هانوتو Hanotaux وزير خارجية فرنسا بأنه اعتداء على حقوق مصر وتركيا، كما سعت فرنسا كذلك للإعداد لحملة أخرى يبدأ زحفها من الحبشة شرقا للسوبات لتموين الحملة الآتية عن طريق الغرب، ولتحقيق هذا الهدف أجرت اتصالات مع منيلك لتسهيل مرور الفرنسيين وخاصة في ظل تزايد نفوذهم وتأسيس مستعمرات لهم في الصومال الفرنسي كما أن نشاط الفرنسيين وأطماعهم في حوض النيل لم تنته نهائيا، خاصة أن إنجلترا كانت قد بدأت في مشروع إنشاء سكة حديد أوغندا كتمهيد للوصول إلى أعالي النيل عن طريق أوغندا وقد عملت فرنسا على تعيين فيكتور ليوتارد Liotard مندوبا للابانجي العليا على أمل أن يمتد نشاطه من هذه المنطقة صوب بحر الغزال (الجميل ش.، 2008، صفحة 705).

ثانيا: المخططات الاستعمارية الإنجليزية ومساعدتها للسيطرة على أعالي النيل في السودان

بعد تمكن الانجليز من إحكام السيطرة على مستعمراتهم في جنوب إفريقيا (الكاب 1815، ناتال 1844، ترانسفال 1881) وكذا شرقها بإعلان الحماية على الجزء الأكبر من الشرق، و بسط سيطرتهم على كل من أوغندا 1894 وكينيا وجزيرة زنجبار والصومال الإنجليزي، ولم يبق سوى أعالي النيل منطقة حرة، وبعد افتتاح قناة السويس 1869 وحصول بريطانيا على حصة مصر في أسهم القناة سنة 1877 زادت الأهمية الإستراتيجية للمنطقة فاستجابت الحكومة البريطانية لاقتراح سيسل رودس، المتمثل في ضرورة ربط مستعمرات شرق إفريقيا بأملاك التاج البريطاني جنوبا، وبذلك يكتمل إقامة حزام استعماري بريطاني يمتد من الشمال عند شواطئ البحر الأحمر (مصر) إلى الجنوب عند رأس الرجاء الصالح (حامد، الصفحات 44-45)

1. تقرير المخابرات البريطانية

ومن اجل الحفاظ على النفوذ الإنجليزي أعالي النيل عملت بريطانيا على انتهاج مختلف الاستراتيجيات لتحقيق ذلك ومن بين هذه المخططات اعتمادها على تقارير مخابراتها في السودان، وأثناء بحثنا حول الموضوع اطلعنا على تقارير المخابرات البريطانية بخصوص النفوذ البريطاني في مصر والسودان التي كانت ترسل شهريا لتنوير الحكومة البريطانية بتفاصيل مختلف الأحداث في المنطقة.

ويحمل التقرير عنوان " تقرير المخابرات البريطانية عن المهدي في السودان رقم (60)، ويغطي الفترة الممتدة من 2 ماي إلى 31 ديسمبر 1898م، وقد قام بترجمته وتحقيقه البشير احمد محيي الدين وتم إصدار الطبعة الأولى منه عن دار رفيقي للطباعة والنشر سنة 2020م، ويشتمل على 348 صفحة

ويعد التقرير إحدى الوثائق التاريخية الهامة التي أرخت للوقائع والأحداث من تاريخ السودان وكان من أبرزها واقعة فاشودة 1898م، كما أن التقارير التي تضمنها كان الهدف من ورائها تنوير حكومة الاحتلال الإنجليزي في السودان وهذا ما يؤكد مصداقيتها بحيث أنها كتبت للانجليز.

تاريخيا غطى التقرير أهم الأحداث التي وقعت في سنة 1898م. وتناول جوانب متعددة اقتصادية وسياسية واهتم بعلاقات السودان بدول الجوار، ومحاولات التوسع الحبشي على حساب الأراضي السودانية، كما أن اطلاع الانجليز على هذه الأوضاع الداخلية العامة ساعدهم في الاحتفاظ بسيطرتهم على المنطقة خاصة في ظل المنافسة الدولية الشرسة على أعالي النيل.

جغرافيا اشتمل التقرير على خرائط جغرافية للطرق البرية والمجاري المائية والمدن والقرى، وخارطة التوزيع القبلي ومناطق نفوذ الزعماء المحليين (الدين، 2020، الصفحات 10-12)، وزعامات الطرق الصوفية في المنطقة، كما أعطى تفصيلاً شاملاً عن الخارطة الدينية فأشار إلى مناطق التواجد الإسلامي شمالاً، وأماكن انتشار الديانة المسيحية، وكذا الديانات المحلية جنوباً وحدد أهداف بعيدة المدى لعزل الجنوب عن الشمال، (الدين، 2020، صفحة 24)، هذه الدراسات الشاملة أبانت عن جهود رجال المخابرات ودورهم في اختراق دولة المهديّة، كما تم من خلاله رصد التهديدات الأمنية الممكنة أن تواجه الانجليز. وقد قام بإعداده فرع لقلم المخابرات وتم إصداره من طرف الاميرالي ونجت باشا، وهو أقدم ضابط بعد السردار كتشتر، وقائداً ثانياً للقوات، ورئيساً لقلم المخابرات. كما شارك في إعداده عدد من الضباط الانجليز وبعض من الضباط المصريين.

واهم ما جاء ضمن هذا التقرير أن الموقع الاستراتيجي للسودان والمتحكم في كل الطرق الممتدة نحو القارة الإفريقية من البحر الأحمر وجنوب الصحراء وغرب إفريقيا والتوغل نحو منطقة البحيرات هو الأمر الذي دفع البريطانيين إلى سباق القوى وإعادة احتلال مصر والاندفاع لاستعمار السودان، باعتبار أن هذا الموقع يمثل رابطاً بين مختلف طرق النقل إلى الداخل الإفريقي، فكانت توجهات بريطانيا تقتضي إعادة استعمار البلاد تحت أي لافتة ومنع التسابق الأوروبي على المناطق التي تراها من حيازتها (الدين، 2020، صفحة 14).

2. الاستراتيجية الدبلوماسية للإنجليزي

وفي هذا الإطار سعى الإنجليزي إلى إحكام السيطرة على السودان وقطع الطريق على منافستها التقليدية فرنسا وحلفائها، وللوصول إلى ذلك المسعى قامت بالعديد من التحالفات الدولية فعقدت مع ألمانيا معاهدة في نوفمبر 1893 (حسين، 1935، صفحة 5) تم بموجبها السماح للممتلكات الألمانية في الكاميرون بالامتداد شمالاً حتى بحيرة تشاد وشرقاً حتى حدود دولة الكونغو، بحيث تكون بعيدة على أعالي النيل (عبده، صفحة 113) كما تم منح الإيطاليين مناطق على البحر الأحمر (مصوع) (عامر، 2018، صفحة 635) التي كانت سابقاً تابعة للأملاك المصرية. كما قدمت لهم تسهيلات لإنشاء مستعمرة إريتريا، هذا بالإضافة إلى اتفاقيات تم انعقادها في سنتي 1891-1894 نصت على اعتراف بريطانيا بدائرة نفوذ إيطالية تمتد من إريتريا وتشمل الحبشة وتنتهي على ساحل المحيط الهندي بما فيها الصومال الإيطالي (عبده، صفحة 113) ، وكانت خطة البريطانيين تشجيع التغلغل الإيطالي في الحبشة لضمان حليف ضد ما قد تقوم به فرنسا من عرقلة لطموحاتهم، (الينور، 1945، صفحة 34) والجدير بالذكر أن جميع تلك الاتفاقيات تم فيها مراعاة رسم حدود المناطق بحيث تكون بعيدة عن أعالي النيل.

وفي إبريل 1891م عقدت إنجلترا اتفاقاً مع إيطاليا اعترفت فيه هذه الأخيرة بحقوق مصر في السودان، وفي إطار التسويات قامت إنجلترا بمنح منطقة (كسلا) للإيطاليين والسيطرة عليها مؤقتاً، ريثما يتم استردادها في الوقت الذي تراه إنجلترا مناسباً، كما قامت بتعديل حدود مستعمراتها مع حدود المستعمرات الألمانية في شرق إفريقيا مقابل أن تتخلى هذه الأخيرة عن ادعاءاتها في حوض النيل، وتوصلت إنجلترا لاتفاق مع البلجيكي سنة 1894 والذين يسيطرون على دولة الكونغو الحرة القريبة من بحر الغزال. حيث عملت إنجلترا على تأجير منطقة بحر الغزال للبلجيكي (عامر، 2018، صفحة 635). وكان الهدف من ذلك صد الفرنسيين من الجهة الغربية.

ومن الملاحظ أن مساعي الانجليز الدولية كلها كانت تصب في إطار تفويت الفرصة على فرنسا من خلال إبرام عقود تسوية واتفاقيات مع الدول التي ترى أنها قد تتحالف مع فرنسا والتي في نفس الوقت لها أطماع على غرار البلجيكي.

ثالثاً: المخططات الاستعمارية الفرنسية ومساعدتهم للسيطرة على السودان

1. الاستراتيجية الدبلوماسية الفرنسية

بعد إتمام فرنسا لتشكيل إمبراطوريتها غرب إفريقيا ببسط نفوذها على السنغال والسودان الفرنسي، إضافة إلى الكونغو وأوبانغي، وتمكنها من إيجاد موطن قدم شرقها بغزوها لمدغشقر على المحيط الهندي وجيبوتي على البحر الأحمر وجدت أنه من الضروري إيجاد سبيل للسيطرة على أعالي النيل من أجل ربط ممتلكاتها الغربية بالشرقية، وإنشاء طريق تجاري (Teisseire, 1898, pp. 7-8) فلجأت إلى البعثات الاستكشافية التي قادها الضباط المستكشفين حيث أوكلت لهم هذه المهمة. وهي إحدى الاستراتيجيات التي ركزت عليها للظفر بموقع لها على النيل، وقد أثار هذا الإجراء حفيظة بريطانيا في حين أن فرنسا دائماً ما أكدت أن تلك البعثات علمية استكشافية. إلا أننا نجد في الواقع أن هدفها تمثل في الاستحواذ لتطوير النفوذ الفرنسي، وضمان التواصل بين الممتلكات الفرنسية وقد انتهجت فرنسا خيار الاستكشاف كوسيلة لتحديد موقعها المستقبلي وللكشف عن فائدة المناطق استراتيجية واستغلالها تجارياً (LEFEBVRE, 2015).

أما دبلوماسية فإنها قامت بتسويات من خلال الضغط على ليوبولد الذي وقع معاهدة 14 أوت 1894 تنازل فيها عن أغلب ما منحه له معاهدة 12 ماي 1894 مع البريطانيين والمتمثل في تأجير منطقة بحر الغزال، وبهذه الترتيبات انفتح الطريق أمام الفرنسيين نحو النيل مما مهد الوصول إلى فاشودة، وهكذا تم نسف المعاهدة الإنجليزية - البلجيكية من طرف فرنسا التي استمرت في ضغطها على ليوبولد. (رزق، صفحة 186).

استراتيجية وقبل تأكيد فرنسا اختيارها طريق الكونغو لمروور بعثاتها الاستكشافية كانت قد طرحت فكرة المرور عبر الجزائر وبسبب مقتل فلاترز وموريس من طرف الطوارق أصبح المرور محفوفاً بالمخاطر، كما تم اقتراح المرور عبر السودان الفرنسي إلا أن مقاومة ساموري كانت تهدد هذا الاقتراح حيث أن فرنسا في هذه الفترة لم تكن قد قلصت من مخاطره بعد (Teisseire, 1898, p. 9)، ولم يبقى إلا طريق الكونغو فقامت فرنسا بإرسال بعثات استكشافية إلى المنطقة عن طريقه ممثلة في بعثات: مونتيل، Liotard، وبعثة مارشان Marchand، بذل كل منهم جهوداً كبيرة لأجل الوصول إلى حوض النيل وكانت الصعوبة تتمثل عسكرياً في مقاومة ساموري توري، واستراتيجية في صعوبة اختراق القارة من الغرب نحو السودان المصري مروراً بإفريقيا الوسطى نظراً للمناخات الاستوائية الصعبة والأهوار الغير صالحة للملاحة.

2. البعثات الاستكشافية الفرنسية

بعثة مونتيل 1893-1894

وتعتبر بعثة مونتيل (1893-1894) من أهم الرحلات الاستكشافية الموجهة إلى أعالي النيل و تم إسناد هذه المهمة من طرف وكيل وزارة المستعمرات الفرنسية ديلكاسيه Delcassé إلى مونتيل وقد وقع اختيار ديلكاسيه على هذا المستكشف كونه أحد أفضل المستكشفين الفرنسيين حيث نجح في القيام برحلة استكشافية من السنغال إلى بحيرة تشاد (1890-1892) (Yves, 1972, p. 360) عبر سوكونو وكانوا (Y. Lanhers, 2007, p. 2) وبتاريخ 4 ماي 1893 تم استقباله في قصر الاليزيه لإجراء مقابلة مع ديلكاسيه والرئيس الفرنسي سادي كارنو Sadi Carnot بشأن مهمة البعثة الاستكشافية الموجهة للنيل خاصة وأن صمويل بيكر قد أكد في وقت سابق، في رسائل إلى صحيفة التايمز في أكتوبر 1888 أن أي قوة تتمكن من السيطرة على أعالي النيل سيصبح بإمكانها السيطرة على مصر والتحكم في المنطقة ككل، وهو نفس الأمر الذي أكدته السير ايفلين بارينج وباعتماده على المشورة الفنية للمهندسين الانجليز توصل إلى أن أي قوة تنشأ في أعالي النيل ستضع مصر في قبضتها (Jean, 1958, pp. 444-445).

وتستند بعثة مونتيل إلى الفرضية القانونية المتمثلة في تخلي مصر عن السودان وتحويله إلى منطقة حرة للمنافسة منذ 1885، والهدف منها إجبار إنجلترا للدخول في مفاوضات لاقتسام السودان وإعادة طرح المسألة المصرية. وقد جاءت هذه البعثة في وقت كثفت فيه إنجلترا نشاطاتها عبر أوغندا من 1993-1995 وهذا ما عزز من مخاوف الفرنسيين في الوقت نفسه كانت فكرة التقارب الإنجليزي البلجيكي في تزايد خاصة بعد توقيع اتفاقية 12 ماي 1894 والتي بموجبها استلم ليوبولد بحر الغزال على سبيل الإيجار. ومن النتائج التي جاءت بها بعثة مونتيل أن الكونغو أقصر طريق للوصول إلى النيل، وكان الهدف من البعثة الوصول إلى السودان المصري ورفع العلم الفرنسي على فاشودة (رينوفان، 1948، صفحة 222) ومن ثم الاستيلاء عليها.

وقد تم دعم المشروع من وزارة المستعمرات الفرنسية، واعترضه صعوبات حالت دون تحقيقه منها صعوبة فتح الطريق الرابط بين غرب إفريقيا والسودان المصري في ظل سيطرة البلجيكيين على جزء كبير من الطرق المؤدية، واستجابة للتحذيرات البريطانية قام هانوتو Hanotaux وزير خارجية فرنسا بتقييد بعثة مونتيل مفضلاً الحلول الدبلوماسية (MICHEL, 1972, pp. 22-23). وإلى جانب ديلكاسيه وكارنو وجهودهما للترويج فيما يتعلق ببعثة النيل، فإن لجنة إفريقيا الفرنسية شاركت أيضاً في إعداد هذه السياسة وحدث تعاون وثيق بين مروجي رحلة مونتيل وقادة اللجنة، وقد أبدت الإدارة العليا للمستعمرات دعمها للبعثة إلى جانب وزارة الخارجية وتم تخصيص مبلغ 300 ألف فرنك لتغطية تكاليف البعثة

بعثة ليوتارد 25 أكتوبر 1894

تطورت فكرة الوصول إلى النيل عن طريق الكونغو خاصة بعد الاتفاق الفرنسي الكونغولي في 29 أبريل 1887 الذي حصلت بموجبه فرنسا على الضفة اليمنى لنهر اوبانغي l'Oubangui وهو المعلم الرئيسي لبعثات الاختراق نحو الشرق، كما أكد استكشاف اوبانغي وجود طريق نهري إلى الشرق، ومنذ 1890 تم الترويج لمهمة الكونغو النيل عن طريق لجنة إفريقيا الفرنسية، وبعض السياسيين، وفي 1891 عهد دي برازا إلى ليوتارد بالتخطيط لاختراق الاوبانغي للوصول إلى النيل، وأكدت المعلومات الاستكشافية لبرازا أن المناطق المراد اختراقها أسهل مما كانوا يعتقدون، كما أن وصولهم إلى النيل سيمنح فرنسا وضعاً يوازي التفوق الذي اكتسبه الانجليز بسيطرتهم على مصر، كما أن الثروات الهائلة للابانغي وغناها بالعاج حافزاً آخر حيث كتب ليوتارد إلى برازا "إذا أردنا الاستفادة من تجارتنا في اوبانغي ومن الموارد التي توفرها هذه المنطقة الغنية بالعاج علينا ان نثبت أنفسنا هناك من أجل الحصول على مكانة من خلال نفوذنا" (MICHEL, 1972, pp. 8-12)

وبهذه الطموحات اجتمعت وتشابكت الطموحات السياسية والتجارية لاختراق اوبانغي لدى برازا وليوتارد عام 1891 وقد وجدوا اعتراضاً من ليوبولد الذي انتهك اتفاقية 1887 وكانت له نفس الطموحات، حيث أصبح السباق محموم نحو النيل وما تجدر الإشارة إليه أن فكرة السير نحو النيل من الغرب ترجع مبادرتها الأولى إلى برازا Brazza وليوتارد Liotard. إلا أنها لم تجد دعماً من الحكومة الفرنسية في تلك الفترة.

تم إعداد مشروع بعثة ليوتارد من طرف وزارة المستعمرات الفرنسية، ووافق عليه هانوتو وزير خارجيتها، وتقرر أن تنطلق البعثة بتاريخ 25 أكتوبر 1894 وكان ينتظر أن تصل إلى أعالي النيل في مدة عام، ولم تصل البعثة إلى غرضها المنشود بسبب معارضة بريطانيا التي اعتبرت ذلك عملاً عدائياً ضدها، رغم أن فرنسا أعلنت بان مسألة أعالي النيل لم يتم الفصل فيها نهائياً، وإن لفرنسا الحق في إرسال بعثات إلى كل المناطق التي لم تخضع بعد لأي دولة أخرى، وباستقرار علاقات الفرنسيين مع البلجيكي بشأن الكونغو أصبح بإمكان فرنسا مد نفوذها إلى أعالي النيل وبذلك تجدد مشروع ليوتارد في شكل مشروع مارشان (رينوفان، 1948، الصفحات 222-223)

بعثة مارشان 1896-1898:

وردا على طموحات سيسل رودس الرامية إلى اختراق القارة طولاً من الجنوب إلى الشمال، أصر مارشان على تنفيذ مشروع اختراق القارة من الغرب نحو الشرق وقامت فرنسا بالإعداد لبعثة مارشان Marchand والمعروفة ببعثة الكونغو-النيل وهي إحدى المشاريع الفرنسية الاستكشافية المهمة ويعتبرها الفرنسيين لا تقل أهمية عن بعثات ستانلي (MICHEL, 1972, pp. 8-12)

سعت فرنسا للتخطيط لإيجاد منفذ على النيل للكونغو الفرنسية وهو إحدى أهدافها من خلال بعثة مارشان، كما أنها ادعت أن مناطق مصر القديمة في خط الاستواء كانت أرض بلا مالك فأرسلت إليها بعثتها بقيادة الكولونيل مارشان (تشرشل، 2002، صفحة 285). ويرجع نجاح البعثة في اختراق القارة من غربها إلى شرقها إلى الضابط المستكشف مارشان الذي قضى ثمان سنوات في غرب إفريقيا قبل الشروع في مهمة (الكونغو - النيل) بين مهام عسكرية وأخرى استكشافية تمكن من خلالها من اكتساب خبرات متنوعة كإتقانه للغات المحلية، إلى جانب شجاعته، فأطلق عليه جنوده "مخترق الغابات" (Lewis, 1987, p. 83)

واعتمد الفرنسيين في خططهم للوصول إلى أعالي النيل بالمرور عن طريق الكونغو الفرنسي، واختاروا الانطلاق من الغرب لأنهم لن يضطروا للخروج عن أراضي مستعمراتهم في إفريقيا الغربية رغم طول المسافة مقارنة بالمسافة من الشرق فهي الأقصر إلى فشودة، إلا أنهم لو اختاروا هذا الطريق المسدود سيضطرون لعقد اتفاق مع الحبشة والمهدين، وقد لا ينجح هذا الأمر خاصة في ظل وجود المنافس الإنجليزي، (Teisseire, 1898, pp. 8-9) وبالتالي فإن هذا الخيار تم استبعاده. وفي مارس 1896 كانت قد أكملت البعثة استعداداتها وغادر مارشان باريس في جوان 1896 رفقة 12 ضابط صف ومائتي جندي سنغالي ومترجم وطبيب وفي 22 جويلية وصلوا إلى ميناء لوانغو في الكونغو على بعد 500 كلم من برازا فيل وهو الجزء الأصعب من طريق الرحلة (Teisseire, 1898, p. 10)

وكانت تعليمات الحكومة لمارشان المرور عبر نهر الكونغو ثم أوبانغي وصولاً إلى بحر الغزال على بعد كيلومترات من فشودة، على أن يقوم باستمالة المهدين وكسب ودهم، (نمير، الصفحات 9-10). وبوصول البعثة إلى نهر السويح لم تعد الملاحظة ممكنة فاضطروا للتزول عند إحدى القرى التي تدعى Kodjoli، و حسب رسالة من ضابط صف سنغالي بتاريخ 27 أوت 1897، ورسالة أخرى من نيكولاس Nicola ضابط صف في البعثة بتاريخ 12 سبتمبر 1897 تؤكد أقوال الضابط السنغالي مفادها أن البعثة وفي طريقها إلى أوبانغي قامت بمهاجمة القرى الإفريقية بهدف توفير حمالين لنقل حمولتها، فقامت بقتل أفراد القبائل وإضرام النار في أكواخهم، وإجبار الآخرين منهم على نقل المعدات والقوارب من مكان إلى آخر، ويؤكد الضابط السنغالي أن قتالهم هي الطريقة الوحيدة لإخضاعهم (Guétant, 1899, pp. 16-17-18) ويبدو أن هذه البعثة كانت على استعداد للقيام بأي شيء يمكنهم من الوصول لهدفهم.

وقبل الوصول إلى بحر الغزال لم تكن مهمة الاختراق سهلة على البعثة الاستكشافية الفرنسية (Guétant, 1899, p. 14)، وقد اعترضها عقبات جمة لعل أبرزها: وجود منحدرات والتي اقترح مارشان إمكانية تجنبها مستقبلاً بإنشاء سكك حديدية إضافة إلى صعوبة الملاحة والتي كانت دائماً خطيرة وبشكل خاص أثناء انحصار منسوب المياه، وتكاثر الشعاب المرجانية، والعلق والبعوض... مما سبب لهم إصابات بحى الملاريا، إضافة إلى نفاذ الذخيرة وغرق سفينة أوبانغي التي كانت تحمل إمدادات الحملة المتمثلة في مدافع وبريد من فرنسا (M.Dutrèb, 1922, p. 82)

وهذا علاوة على عدااء القبائل كقبيلة Djinghès التي منعت أفرادها من التعامل مع البعثة، ورفض مرور أي إمدادات عبر قراها، هذه الصعوبات جعلت الفرنسيين يكتسبون ميزة هامة وهي القدرة على استخدام الطرق النهرية (Teisseire, 1898, p. 9) وقد خصص العقيد باراتيه Baratier كتابه "عبر إفريقيا" للتفصيل أكثر في العراقيل التي اعترضت البعثة.

وكان الهدف في هذه الأثناء هو أسبقية الوصول قبل الانجليز إلى فشودة تحت أي ظرف، وفي ظل هذه التحديات يؤكد أفرادها أن تحقيق المجد لفرنسا ورفع العلم الفرنسي على المناطق المكتشفة كفيل أن ينسبهم متاعب الاستكشاف. ولولا هذه الصعوبات التي عرقلت سير البعثة وأخرت وصولها لتمكنت من الوصول في وقت مبكر وقامت بتحصينات أكثر للظفر بموقع على أعالي النيل.

وعلى الرغم من ذلك تمكنت البعثة من تحقيق الأهداف المحددة لها بمد الإمبراطورية الاستعمارية إلى بحر الغزال ثم النيل، وبوصول مارشاند إلى فشودة بتاريخ 10 جويلية 1898 (M.Dutrèb, 1922, p. 96) وقد وجد ترحيباً من زعيم قبيلة الشلك عبد الفضيل، أكبر القبائل في أعالي النيل الأبيض، وكان عبد الفضيل يسعى للتحالف مع الأقوى ضمناً لمصالحه، وبالوصول المبكر لفاشودة ورفع العلم الفرنسي عليها أصبحت ملكية فرنسية، استناداً لاتفاقيات برلين 1885. وتعبيراً عن الانتصارات المحققة احتفل أفراد البعثة باليوم الوطني الفرنسي في أعالي النيل ورغم تلك الانتصارات لم تنته العقبات عند فاشودة حيث تداولت أخبار تفيد أن المهديين في طريقهم لخوض معركة مع أفراد البعثة، وتفيد أخرى باقتراب الانجليز، وتراجع عبد الفضيل عن دعمه للفرنسيين في ظل تقدم المهديين هذا إضافة إلى الصعوبة المتعلقة بالمناخ والرطوبة التي تتسبب في ظهور أمراض كثيرة تهدد حياة أفراد البعثة (M.Dutrèb, 1922, p. 98).

وكان رد المهديين على تواجد البعثة الفرنسية بمهاجمتها واستمرت المناوشات لساعات، واستطاعت خلالها الحملة الفرنسية التغلب على المهديين، وفي نظرنا أنه كان بإمكان المهديين إفشال المشروع الفرنسي في فشودة بالتغلب على الحامية الفرنسية القليلة العدد والمنهكة خاصة وأن الإمدادات في هذه الأثناء لم تصلها بعد، وقد حدث العكس من ذلك.

وبإلزام المهديين أبدت قبيلة الشلك رغبتها في التحالف مع الفرنسيين حيث وقعوا اتفاق تحالف معهم في 3 سبتمبر 1898 وأكدوا تبعيتهم للفرنسيين بقولهم "علمكم هو علمنا ونريد أن نصبح فرنسيين، ولا نريد أن نصبح أتراكاً مرة أخرى" وبهذا أصبحت الضفة اليسرى للنيل الأبيض تحت الحماية الفرنسية (M.Dutrèb, 1922, p. 108) وقد تحققت أهداف الحملة بكل أبعادها، خاصة وأن الاتفاق مع زعماء القبائل المحلية يمثل الخطوة الرسمية الأولى نحو استقرار الوضع.

ومن أجل دعم بعثة مارشان الاستكشافية خططت فرنسا لإرسال حملة أخرى من الحبشة، وقد بلغ الانجليز أن ثمة بعثة فرنسية ببلاط منيلك ومعها ممثل لقيصر روسيا وكان هدفها إنقاذ حملة حبشية تحت إشراف ورعاية فرنسية تزحف من أثيوبيا لتلتقي بحملة مارشان في فشودة، وكانت غاية الحملتين تكوين مناطق نفوذ فرنسية من الساحل إلى الساحل وكان رد بريطانيا إيفاد بعثته دبلوماسية إلى أديس أبابا في 10 مارس 1897 لكسب حياد الأحباش في الصراع، ولصدهم عن التحالف مع الفرنسيين في مشروعهم الرامي إلى الاستيلاء على أعالي النيل.

وقد أبرم الانجليز معاهدة مع منيلك في 14 ماي 1897 بمقتضاها يتعهد ملك الحبشة بعدم السماح للأسلحة والذخائر المرور عبر بلاده إلى السودان، وقد وصل الانجليز إلى قناعة بضرورة استعادة بقية السودان. وعلى غرار مطامع الانجليز والفرنسيين كان للأحباش أطماع توسعية لمد حدودهم الغربية على حساب أراضي السودان، وقد استجابوا لمطالب الفرنسيين للتعاون معهم لإعداد حملة إلى فشودة إذ حشد لها منيلك جنده فساروا حتى حطوا الرحال في فشودة في 22 جوان 1898 غير أنهم وجدوا أن حملة مارشان لم تصل بعد، وعادوا أدراجهم إلى أثيوبيا (حميدة، 1969، الصفحات 275-276).

رابعاً: الأوضاع العامة في السودان

1. قيام الثورة المهدية

يرجع الكاتب المصري عبد الرزاق السنهوري أحد أسباب قيام الثورة المهدية إلى الطريقة التي نفذ بها تحريم الاتجار بالرقيق في السودان، وقد كان هذا القرار بإيعاز من بريطانيا ولم تراخ فيها الظروف والملابسات، وقد استخدم الخديوي إسماعيل السير صمويل بيكر حاكماً على الأقاليم الجنوبية وجعل من أول واجباته مقاومة الاتجار بالرقيق وكان عنيفاً في حكمه وفي إخضاعه القبائل للحكم المصري، وكأنه تعتمد تأليب القبائل على الحكومة حتى يبرئ أسباب التدخل لحكومة بلاده (بريطانيا).

ثم جاء بعده غوردون ليتولى الأمر فصار على نهجه دون حساب للعواقب وقد هيئ غوردون أسباب قيام الثورة، وبالتالي فان بريطانيا وبسوء إدارتها كانت لها يد في إشعال فتيل الثورة المهدية و لم تتخذ الإجراءات اللازمة لإخمادها منذ بدايتها وذلك لأجل تبرير تدخلها في السودان وإجلاء مصر عنه وحتى عرقلة مساعيها للحد من استفحال الثورة المهدية (السنهوري، 1949 م ، الصفحات 202-203). غير أننا نرى سبباً آخر أدى إلى إشعال فتيل الثورة المهدية وهي الأوضاع السيئة التي كان يعيشها السودان من طرف الإدارة المصرية والتي جعلته في جاهزية لأي تمرد من شأنه تغيير تلك الأوضاع.

وقد حملت هذه الحركة بعض من الأفكار التي نادى بها (احمد عرابي) في مصر والتي مفادها التخلص من الحكم الأجنبي عن طريق الجهاد والمقاومة، وسمى أتباعها أنفسهم باسم الأنصار ، إما في الكتب الأجنبية فانهم يعرفون بالدرأويش وقد بعث المهدي برسالة إلى إتباعه يحثهم على تسمية أنفسهم بالأنصار حيث يقول : " من محمد المهدي إلى كافة الإخوان لقد تم تحذير كل المخلصين بان لا يطلقوا على أنفسهم لفظ (درويش) بل (الأنصار) فالأنصار هم الذين تفرغت قلوبهم تماماً لله والذين استنارت أرواحهم بإرادة الآخرة وما فيها من نعيم" (ونجت، 2009، صفحة 80)

والجدير بالذكر أن السودان بالنسبة لمصر يعتبر الخزان العسكري والاقتصادي ولم يكن من صالح مصر ظهور حركة سودانية تسعى لعزل السودان عن مصر. ويزعم بعض الكتاب المصريين أن المهدية حركة دينية لم تكن تهدف إلى انفصال السودان عن مصر (السنهوري، 1949 م ، صفحة 200)، إلا أنها في الواقع كانت تطمح الى التوسع شمالاً على حساب مصر (Guetant, 1899, p. 31) التي كانت تحت وطأة الانجليز.

وقد ساهمت الظروف الاجتماعية والاقتصادية السيئة إلى جانب العامل الديني ، في الاستياء لدى السودانيين ونتيجة لممارسات الإدارة التركية المصرية المتعسفة في السودان، وعملها على زعزعة نظامه القبلي وأنهاك موارده الاقتصادية (القدال، الامام المهدي محمد احمد بن عبد الله 1844-1885، 1992، صفحة 16) كما أدى إئصال كاهل الأهالي بالضرائب الباهضة إلى خلق شعور عام بالسخط (f.Butler, 1889, p. 128) هذا إلى جانب محاولات الحكومة قمع تجارة الرقيق (العاج الأسود)، والتي كانت قبائل الدنكا جنوب السودان الممول الرئيسي لها ، وهذا ما اعتبره السودانيين ضربة موجبة إلى مصدر هام للثروة لديهم ، وأدى ذلك إلى ثورة القبائل البدوية وتجار العبيد ضد الحكومة الإنجليزية. هذه الأخيرة كلفت غوردون بإعداد مخطط لضرب تجارة العبيد في كل من دارفور والخرطوم (f.Butler, 1889, p. 125) أهم المراكز التجارية النشطة للرقيق، (بواهن، 1990، صفحة 91)

و تطور الأمر إلى معارك بين المهديين والانجليز استمرت سنوات من (1881-1885) ولم تعير الحكومة الإنجليزية المهدية أي اهتمام في بادئ الأمر على الرغم من تحقيقهم لأول انتصار في معركة شيكان (ب.م.هولت، صفحة 85) 5 نوفمبر 1883 م ومقتل قائد الجيش الإنجليزي هكس Hicks وتدمير جيشه (Chamberlain J. , 1932, p. 199) ، وقد كان ذلك

الانتصار مكسبا كبيرا لهم بتحقيق سيطرتهم على أهم المناطق الإستراتيجية كإقليم دارفور وبحر الغزال (بواهن، 1990، صفحة 93) الذي يعد المفتاح للوصول إلى فشودة.

وقد أحرز المهديين انتصارات متتالية، وأبدوا شجاعة قتالية حيث يقول غوردون في مذكراته "...خاضوا قتالهم دون أجر أو مكافأة سوى ما منحهم إياه ساحة المعركة، ولو كانت بأيديهم أسلحة مماثلة لحسنت المسالة، ولن يكون من المبالغة القول أن ألف من العرب الدراويش كانوا سيشتتون عشرين ألفا من معارضهم" (f.Butler, 1889, p. 237). كما أن سيطرتهم على شرق السودان وانتصارهم في معركة شيكان أصبح ينظر إليهم من طرف الانجليز على أنهم يشكلون لها تهديد فعلي وبذلك طرأ تغيير على السياسة البريطانية تجاه السودان فأمرت الحكومة المصرية بإخلائه وأوفدت الجنرال تشالز غوردون للإشراف على ذلك، وفي تلك الأثناء التي كان يتقدم فيها المهدي نحو العاصمة وقد جد الجنرال غوردون نفسه في موقف خطير حيث فقد أكثر من ألف وثمانمائة مقاتل والعديد من الجرحى من جنوده (f.Butler, 1889, p. 241). وبعد حصار طال أمده هاجمت قوات المهدي المدينة وتم قتل الجنرال غوردون في 26 يناير 1885م

وفي ظل هذه التطورات التي كانت لصالح المهديين تحولت المهديّة من حركة احتجاج دينية إلى دولة مهيمنة لها مؤسساتها المالية والإدارية وأصبح المهدي يطمح للتوسع أكثر، ووجه خطابات الدعوة للزعماء في المنطقة مثل خديوي مصر ومنليك إمبراطور الحبشة بدعوتهم لقبول رسالة المهدي واعتناقها وفي حالة الرفض هددتهم بالمواجهة والجهاد، ولم يعمر المهدي طويلا حيث حالت وفاته دون تحقيق ما كان يطمح إليه

وقد خلفه عبد الله التعايشي الذي لم يكن في مستوى المهدي وقد واجهته مشاكل اقتصادية وإدارية، وهزائم في معارك متعددة وخلال هذه الظروف تلقى عرضا من منليك يتمثل في عقد حلف إفريقي لمواجهة الامبريالية الأوروبية وقد كان رده بالقبول شريطة أن يعتنق إمبراطور الحبشة الإسلام ويؤمن بالمهديّة كشرط مسبقة لذلك التحالف (بواهن، 1990، صفحة 94) فعدم تقديره الصحيح للتهديد الأوروبي، قد حال دون تشكيل تحالف إفريقي لمواجهة الامبريالية الأوروبية، وانعكس ذلك على تراجع المهديين وانهزامهم أمام بريطانيا، وخوضهم لحرب طال أمدها ضد الإثيوبيين مما ساهم في إضعاف القوتين معا، حيث أضحت المنطقة لقمة سائغة أمام الامبريالية الأوروبية.

2. استرجاع الانجليز للسودان

من بين الأسباب التي جعلت الانجليز يعيدون استرجاع السودان ضغط الرأي العام الإنجليزي على حكومته ومطالبته الأخذ بنأر غوردون وهذا ما ذهب إليه الكاتب ونستون تشرشل، بينما يرى آخرون أن نشاط المهديين شرق السودان وتحالفهم مع الأقباش قد أزعج الانجليز، كما أن هزيمة حلفائهم الايطاليين في عدوة 1896 أصبح يشكل تهديدا لهم بانكشاف جناحهم الشرقي، وتحطم الحاجز الذي بنوه للحيلولة دون وصول منافسيهم إلى أعالي النيل من تلك الناحية، وبذلك سارعوا لاسترداد السودان للوصول بقواتهم إلى أعالي النيل قبل وصول الفرنسيين، وقاد حملة استرجاع السودان اللورد كيتشنر و انتهت بهزيمة عبد الله التعايشي في أم درمان سبتمبر 1898 (عبده، صفحة 115)

أما الأسباب الأخرى لقرار بريطانيا المفاجئ ذلك ترجع إلى سيطرة المهديين على إقليم دنقلة، وضرورة استعادته وهكذا كانت الظروف مهيأة لإعادة الفتح، بتزايد خطر التوسع البلجيكي الفرنسي الاستعماري على أعالي النيل منذ عام 1895م، وخطر التواجد الفرنسي الذي أراد إرغام بريطانيا لمفاوضة وتسوية عامة للخلافات الرئيسية دون أن تتأثر هيبتها وكانت تسعى لتهدئة الرأي العام لديها بسبب ما فقدته من مكانة في مصر (ب.م.هولت، صفحة 252)

وبتاريخ 6 مارس 1896 قررت بريطانيا غزو السودان وتشكيل قوة بريطانية مصرية لهذا الغرض بقيادة الجنرال كيتشنر، واستطاعت بريطانيا إخضاع إقليم دنقلة برمتها دون أي مواجهة تذكر نظرا لتفوق العدة والعتاد التي صنعت الفارق ومكنت الانجليز من الوصول لأهدافهم، وكان احتلال دنقلة إيذانا بسقوط دولة المهدي في السودان سقوطا كاملا، من

خلال خسارتهم لآلاف الجنود ووقوع قاداتهم في الأسر وقتل الكثير منهم ، وكانت آخر معركة لهم بتاريخ 24 نوفمبر 1899 وعلى إثرها قتل الخليفة التعايشي (بواهن، 1990، صفحة 95) ،وبذلك انهارت دولة المهديّة في السودان وطويت صفحاتها.

وفي إطار عمليات إعادة استرجاع السودان غادر الضابط البريطاني (كتشنر) مصر 1896 إلى دنقلة (صبري، 1991، صفحة 220) على رأس جيش مصري انجليزي بلغ تعداد جيشه عشرين ألف مقاتل مزودين بمدافع مكسيم المتطورة التي صنعت الفارق ومكنت لهم الانتصار على المهديين وتمكن كتشنر من الاستيلاء على بربر 1897 وفي 1898 تمكن من الاستيلاء على الخرطوم وأم درمان.

خامسا: وقوع الأزمة 1898م

1. لقاء مارشان وكتشنر

تمكنت بعثة مارشان من الوصول إلى فشودة في 10 جويلية 1898م وعقد معاهدة مع ملكها عبد الفضيل. زعيم قبيلة الشلك التي عملت على دعم البعثة الفرنسية وتم رفع العلم الفرنسي في فاشودة. (حسين، 1935، صفحة 41) ومن الملاحظ هنا أن فرنسا عرفت كيف توظف الوضع الداخلي في فاشودة لصالحها باستغلالها للصراع القبلي القائم بين قبيلة الشلك وهي إحدى أكبر القبائل إلى جانب قبائل الدنكا وقد كانوا في صراع مسبق ضد المهديين. ويعد هذا الأمر إحدى استراتيجيات التغلغل والسيطرة الاستعمارية

وقد زاد الرأي العام الأوروبي في تأجيج الأزمة من خلال الصحف والمنشورات وبوصول البعثة الفرنسية إلى فشودة، لاقى الأمر تشجيعا من الرأي العام الفرنسي الذي كان يتابع مهام الاستكشاف بشغف، أما الرأي العام الإنجليزي فقد اجتاحت موجات من الغضب عندما علموا أن بعثة فرنسية قليلة العدد تمكنت من احتلال منطقة بحجم فرنسا وأعلنوها تابعة لهم (تشرشل، 2002، صفحة 286).

وقام رد اللورد كتشنر قائد الجيش الإنجليزي المصري على البعثة الفرنسية في فشودة بتهنئة مارشان على نجاح مهمته من خلال رسالة بعث بها إليه يخبره فيها بانتصاره في أم درمان وتدميره لكتائب الخليفة، واختفاء المذهبية في وادي النيل وهو ما كانت تطمح له إنجلترا وقد تمكنت من تحقيقه. وكان رد مارشان على تلك المراسلة: بقوله " يشرفني أن أشير إلى استلام رسالتكم بتاريخ 18 سبتمبر 1898 لقد علمت بسرور كبير باحتلال الجيش الإنجليزي المصري لام درمان وتدمير كتائب الخليفة و انتهاء المذهبية في وادي النيل وسأكون بلا شك أول من يقدم تمنياتي الصادقة، تهنيتي الفرنسية للجنرال كتشنر، الذي جسّد اسمه لسنوات عديدة، نضال الحضارة المنتصر ضد التعصب الجامح، لذلك اسمح لي سيدي الجنرال أن التهاني لك ولجيشك الشجاع الذي تقوده، وأبلغكم أنني بأمر من حكومتي احتلت بحر الغزال، ثم بلاد الشلك من الضفة اليسرى للنيل إلى فشودة حيث دخلتها يوم 10 جويلية وفي 25 اوت هوجمت في فشودة من قبل حملة من الدراويش مكونة من باخرتين قوامها حوالي 1200 رجل ومزودة بمدفعية تمكنا من تحطيم معظمها، بعد هذه القضية شملت النتيجة الأولى تحرير بلاد الشلك وقد وقعت مع زعيمها معاهدة في 3 سبتمبر بموجها أصبحت محمية فرنسية، وبوصول التعزيزات لمجابهة أي هجوم محتمل من الدراويش للدفاع عن فشودة أصبحت الحامية أكثر قوة وتقدم، لذلك أقدم لكم أمنياتي الترحيبية إلى أعالي النيل حيث سأكون سعيدا بذلك وأحييكم نيابة عن فرنسا "

(M.Dutrèb, 1922, pp. 110-111-113)

ومن خلال هذه المراسلات بين اللورد كتشنر والضابط المستكشف مارشان يبدو أن الخطاب تميز بالود المتبادل حيث كان بعيدا عن سياسة حكومة بلديهما ورغم اختلاف مصالحهما اكتفيا بكونهما قائدان لحاميتين تمكنا من تحقيق

أهدافهما والجدير بالذكر انه بتدخل حكومة البلدين تغيرت المواقف استناداً لمجموعة من الحجج من خلالها سعى كل منها لإثبات أحقيته بأعالي النيل.

أما الحكومة الإنجليزية فإنها سارعت بالتواجد في فاشودة من خلال حملة مكونة من 5 قوارب وزوارق حربية ومدافع و2000 رجل و50 مدفعاً ورشاشاً مقابل بعثة مارشان المكونة من 150 رجل وبضعة ضباط مسلحين، وفي هذه الأثناء دعا مارشان اللورد كتشنر وطلب منه الحضور للتفاوض، حيث أن هذا الأخير كان يود من البعثة الفرنسية إخلاء فاشودة واستبدال العلم الفرنسي بالعلم المصري إلى جانب العلم الإنجليزي (M.Dutrèb, 1922, pp. 113-114) وقد اندلعت مناقشة حادة بين الطرفين

وبتدخل حكومة الطرفين عقد اجتماع يضم كتشنر ومارشان أكد خلاله كتشنر لنظيره بان وجود الفرنسيين في فاشودة ووادي النيل يعد تعدياً وانتهاكاً صريحاً لحقوق مصر وبريطانيا وان فاشودة تابعة لأمالك الخديوي ولا يحق لفرنسا رفع علمها عليها، وانه مكلف حسب التوجيهات بذلك المجموعة الأوروبية التي احتلت فاشودة وانه ملزم بإنزال العلم الفرنسي (الدين، 2020، صفحة 54) إلا انه تصرف بحكمة ولم يتخذ أي إجراء عسكري ضد بعثة مارشان (الغمرائي، 1916، الصفحات 61-62)، وطالب هذا الأخير بإخلاء المكان وكان جواب مارشان بأنه مكلف من حكومته باحتلال بحر الغزال وفاشودة وأكد عن عدم تراجعها إلا إذا تلقى أوامر من حكومته (PERRENET, p. 36) كما ابلغ اللورد كتشنر مارشان بأنه مكلف من قبل الحكومة المصرية برفع العلم المصري في فاشودة، وكان رد مارشان بأنه لا يعارض رفع العلم المصري بشرط بقاء العلم الفرنسي، وتوصل الطرفان إلى رفع الراية الإنجليزية إلى جانب الراية المصرية، والإبقاء على الراية الفرنسية في فاشودة.

والجدير بالذكر أن التواجد الفرنسي في فاشودة في نفس الوقت الذي كانت تقوم فيه بريطانيا بإعادة استعادة السودان، يعتبر اختطاف لثمرة الجهود الإنجليزية على مدار سنوات من طرف البعثة التي يقودها مارشان. وهذا ما أوجع الرأي العام البريطاني الذي كان يراقب بشغف إعادة الفتح. وهذا ما جعل الحكومة البريطانية تعلن استعدادها لاستعادة فاشودة حتى لو لزم الأمر مواجهة عسكرية.

2. تدخل الحكومة الفرنسية والانجليزية لحل الأزمة

طلبت الحكومة الإنجليزية من الحكومة الفرنسية الجلاء عن فاشودة مشيرة إلى انه ليس لأي دولة أوروبية حق في أي جهة من بلاد النيل، والذي يقع ضمن الأراضي المصرية باعتبار مصر خاضعة لنفوذ بريطانيا، فان النيل ضمنياً يخضع لنفوذ هذه الأخيرة (Chamberlain G., 1932, p. 184)، وان السودان المصري ملكاً لبريطانيا ومصر بحق الغزو (Goode, 1971, p. 205) وفي المقابل كانت حجج الفرنسيين بشأن ذلك انه بعد إخلاء المنطقة من طرف الجيش المصري فإنها أصبحت منطقة مشاعة ولهم الحق فيها كما للايطاليين على البحر الأحمر، والانجليز في أوغندا، والبلجيكي في اللادو (عبد، صفحة 124) واستناداً إلى مبادئ التقسيم في مؤتمر برلين 1885 فإننا نرى أن فرنسا استوفت شروط الحيابة من خلال مبدأ إضفاء الشرعية على أسبقية التواجد للمحتل الأول على الأراضي التي لا مالك لها، وهذا الشرط قد حققته فرنسا بأسبقيتها في الوصول إلى فاشودة في 10 جويلية 1898 بينما الانجليز وصلوا المنطقة في 19 سبتمبر أي بعد 3 أشهر من أسبقية الفرنسيين.

ومن وجهة نظرنا فانه ليس لأي دولة من الدول المتنافسة أي حقوق في أعالي النيل، بحيث إن منطقة أعالي النيل ظلت تابعة لمصر ولم تنفصل عنها نهائياً.

إن عدم تكافؤ ميزان قوى كل من الدولتين المتنافستين كان له بالغ التأثير على الأزمة لان البحرية الفرنسية لم تكن على استعداد لخوض الحرب، بالإضافة إلى تخلي الحليف الروسي عن دعمها دبلوماسياً وعسكرياً، هذا فضلاً عن الوضع

الداخلي الفرنسي المتأزم جراء قضية "ديفورس" التي كادت أن تتحول إلى حرب أهلية، حيث أثرت هذه القضية على سياسة فرنسا الخارجية وباتت الجمهورية الفرنسية الثالثة تواجه أزميتين في وقت واحد (Brown, p. 1).

إن هذه الظروف مجتمعة جعلت ديكاسيه وزير خارجية فرنسا يعيد النظر في مسألة الصراع على فاشودة ويقرر تجنب الطرفين الدخول في حرب طاحنة وإبداء موافقة حكومته الجلاء عن فاشودة في 11 ديسمبر 1898م وتم إنزال العلم الفرنسي وعاد مارشان عن طريق الحبشة وجيبوتي إلى فرنسا (حسين، 1935، صفحة 43) وهذا ما تسبب في إثارة الرأي العام الفرنسي من خلال الصحف الناشطة التي لم تستسيغ النكسة الفرنسية في فاشودة، واضطرت فرنسا أمام القوة البحرية لانجلترا للتنازل عن فشودة وإمضاء اتفاقية التنازل سنة 1898م وعاد مارشان إدراجه إلى فرنسا (صبري، 1991، صفحة 221)

لو نعود قليلا للأحداث السابقة نجد أن فرنسا قد فقدت مكانتها في مصر وأعالي النيل منذ الاحتلال البريطاني لمصر 1882م وذلك قبل حتى قبل أن يصل النزاع إلى منعطفه الحاسم في فاشودة 1898م علما أن النزاع لم يكن بين قوتين متكافئتين فالبريطانيون كانوا مسيطرين على مصر وعازمين على الاحتفاظ بها، أما الفرنسيين فلم يكن تواجههم في النيل سوى مسألة مؤقتة. وما إن حولت بريطانيا مسألة فشودة نحو التوجه العسكري، فإن فرنسا لم تكن على استعداد لذلك خاصة وان قواها البحرية كانت منهكة (ا.ج.ب. تايلور، 2009، صفحة 518)

سادسا: الانفراج الدبلوماسي للأزمة

1. الوفاق الودي 1904

يرجع اختيار الحل الدبلوماسي للأزمة من طرف الفرنسيين إلى سياسة ديلكاسيه Delcasse الذي أصبح وزير للخارجية الفرنسية بداية 18 سبتمبر 1898م قد أحدث تغيير كبير في السياسة الفرنسية الخارجية، التي أخذت منحى آخر على عكس ما كان في عهد سلفه هانوتو ورغم أنه دبلوماسي مقتدر إلا أنه لم يتوصل إلى حلول مع الانجليز (H.stuart., 1921, p. 4). وقد سعى دكاسيه إلى تحقيق التقارب الفرنسي الإنجليزي منذ تقلده لمنصب الوزارة، وكان يدرك جيدا أن فرنسا غير مستعدة لمواجهة عسكرية، فكان أكثر ما يمكنه فعله هو إعادة القضية إلى إطارها الدبلوماسي (عبد، صفحة 519).

وتمت تسوية الخلاف الفرنسي الإنجليزي واحتواء الأزمة بشكل نهائي من خلال الاتفاق الذي جمع الطرفين وتم توقيعه بتاريخ 21 مارس 1899م وتم التوصل إلى قرار يقضي باستبعاد فرنسا من أعالي النيل (عبد، صفحة 520) وقد لعبت الدبلوماسية في هذه الأزمة دورا هاما في التخفيف من حدتها. وفي سنة 1904 عقد الاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا (الجوهري، 1980، صفحة 157) والذي كان مثابة صفحة جديدة لعلاقات البلدين واهم ما نص عليه امتناع كل من الدولتين عن إثارة المشاكل للدولة الأخرى في مصر ومراكش فتنازلت فرنسا لإنجلترا عن مصر وتنازلت إنجلترا لفرنسا عن مراكش وحقق هذا الوفاق التقارب وبموجبه سويت الكثير من الأزمات بين إنجلترا وفرنسا في إفريقيا واسبيا والأمريكيتين (الجمال و عبد الله، 2000، صفحة 225)

2. اتفاقية الحكم الثنائي

اما بالنسبة للجانب المصري تم عقد وفاق بين الحكومتين الإنجليزية والمصرية بتاريخ 19 يناير 1899م فاده جعل البلاد في يد حاكم عام يختاره الانجليز ويؤيده الخديوي ويحكم البلاد بقوانين وشرائع يسنها من وقت إلى آخر حسب حاجة البلاد وحالتها ويصادق عليها معتمد الدولة البريطانية ومجلس النظار في مصر (شقيير، تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، صفحة 673) وكان الهدف من ذلك تنظيم الإدارة في السودان التي كانت تسير فعليا من الجانب الإنجليزي وقد استبعد الجانب المصري رغم الاتفاقية الموقعة بين الطرفين.

وجاء عن اللورد كرومر موضحا دور بريطانيا في المشاركة في حكم السودان عندما قال: "إن إنجلترا وليس مصر هي في الحقيقة التي غزت السودان. صحيح أن المالية المصرية تحملت الجزء الأكبر من التكاليف وأن الجنود المصريين بقيادة الضباط الانجليز قد شاركوا في الحملة. ولكن خلال فترة التحضير لتنفيذ تلك السياسة فإن اليد الموجهة كانت بريطانيا ومن السخيف أن نزعّم انه بدون مساعدة بريطانيا بالرجال والمال والتوجيه، كان في مقدور الحكومة المصرية أن تستعيد السودان. ومن هذا المنطلق فإن ضم بريطانيا للأراضي التي تم غزوها له ما يبرره" (القدال، تاريخ السودان الحديث 1820-1955، 2018، صفحة 318) وبذلك استطاعت بريطانيا الانفراد بالسلطة في السودان تحت ذريعة ضمان استمرار النظام الإداري والاستقرار في السودان (النقراشي، 1947، صفحة 4).

ومن خلال خطاب كرومر نستطيع القول أن بريطانيا استطاعت أن تفرض نفسها كشريك في حكم السودان من خلال اتفاقية الحكم الثنائي التي وقعها الطرفين جانفي 1899 وهي اتفاقية شكلية من وجهة نظرنا خاصة وأن مصر كانت لا تزال تحت وطأة الاحتلال البريطاني، وقد استعملت بريطانيا تلك الاتفاقية كمخرج دبلوماسي للاستفراد بحكم السودان.

خاتمة:

أدى التنافس على أعالي النيل إلى تأجيج الصراع بين فرنسا وإنجلترا لما يتميز به من موقع استراتيجي خاصة بعد تأكيد المستكشفين أن أي قوة تنشأ في هذه المنطقة يمكنها السيطرة وتحقيق النفوذ على الربع الشمالي الشرقي من القارة وبالتالي إيجاد ممر للوصول إلى المناطق الداخلية من القارة والتي كانت إحدى أهم الأهداف الاستكشاف لفرنسا وإنجلترا

أدت المخططات الفرنسية ممثلة في البعثات الاستكشافية إلى نجاح مهمة اختراق القارة عرضا بعد محاولات عديدة، والوصول إلى فاشودة عن طريق بعثة مارشان التي حققت أهدافها الاستكشافية، إلا أنه استنادا لتوجهات الدبلوماسية الفرنسية تم سحب البعثة وعادت أدرجها إلى فرنسا.

نجح الانجليز في مخططاتهم في إعادة استرجاع السودان بمساعدة مصر معتبرين أعالي النيل ضمنيا تحت نفوذهم، إلا أن الفرنسيين حققوا الأسبقية في الوصول للظفر بفاشودة، ونظرا للمساعي الدبلوماسية إضافة إلى تفوق البحرية الإنجليزية تراجع الفرنسيين عن فاشودة بتوقيعهم لاتفاق ودي فتح آفاق جديدة للعلاقات الفرنسية الإنجليزية وحقق التقارب المنشود مطلع القرن العشرين، هذا التقارب كان سببا مهما في استكمال احتلال القارة ومواصلة تقسيم مناطق النفوذ من خلال التسويات التي تمت بعد ذلك، حيث أنه وعشية الحرب العالمية الأولى أصبحت القارة كلها محتلة عدا إثيوبيا وليبيريا وكان النصيب الأكبر لكل من فرنسا غرب القارة وإنجلترا شرقها

- أصبحت الحادثة المسماة بفاشودة رمزا لمنتهى ما وصلت إليه المنافسة الاستعمارية الفرنسية الإنجليزية، ونهاية عملية لموقف فرنسا المعارض للاحتلال الإنجليزي لمصر.

المراجع:

- Brown, R. G. Fashoda reconsidered the impact of domestic politics on French policy in Africa 1893-1898. London: the johns hopkins press.
- Camille LEFEBVRE. (2015) Histoire de territoires et de frontières, du jihad de Sokoto à la colonisation française du Niger Paris .XIXE-XXE Sièdes .
- Chamberlain, G. (1932). Fachodaou le Renversement des alliances. paris.
- Guetant, L. (1899). Marchand- Fashoda la mission CONGO-NIL- sa preparation.ses pratiques. Paris.
- Guétant, L. (1899). Marchand-Fachoda laa mission Congo-Nil sa préparation ses pratiques son but ses résultats. Paris.
- H.stuart., G. (1921). french foreign policy from Fachoda to serajevo 1898-1914. NEW YORK.
- hanotiaux, G. . Le partage de lafrirque fachoda. paris.
- James Hubbard.(1971). The Fashoda Crisis:A Survey ofAnglo-French Imperial Policy on the Upper Nile. Goode Question,1882-1899
- Jean, S. (1958). Aux origines de Fachoda l'expédition Monteil. Revue belge de philologie et d'histoire .
- Fachoda ou le renversement des alliances. Paris. (1932) .Joe Chamberlain.
- Lewis, D. L. (1987). THE RACE TO FASHODA colonialisme and african resistance.
- M.Dutrèb. (1922). Marchand. Paris.
- MARC MICHEL (1972) La mission Marchand 1895-1899 Études. École Pratique des Hautes Paris.
- PERRENET, M. fachoda l epopee de marchand.
- Sir William f .Butler (1889) Gordon Macmilian and CO. and New York London
- Teisseire, M. R. (1898). Faite al'association générale des étudiants de MARSEILLE le 26octobre 1898. MARSEILLE.
- Y. Lanhers. (2007). CENTRE HISTORIQUE DES ARCHIVES NATIONALES(Section des archives privées). Fonds colonel Monteil (1885-1940) .
- Yves, d. T. (1972). Un épisode du partage de l'Afrique. Revue française d'histoire d'outre-mer, .
- J.B. Taylor. (2009). The Military Struggle for European Sovereignty 1848-1918 (Volume I). (Fadel Jatker, translators) Beirut: Arab Cultural Center.
- Addo Boahin. (1990). Africa under colonial domination 1880-1935. (United Nations Educational, Cultural and Cultural Organization, ed.) Beirut, Lebanon: Catholic Press
- Bashir Ahmed Muhyiddin. (2020). British intelligence report on Mahdia in Sudan No. (60). Khartoum : Rafiki Printing & Publishing
- Major FR Wonget. (2009). Mahdia and Egyptian Sudan. (Mohammed Al-Mustafa Hassan Abdul Karim, translators) Khartoum: Dar Azza for Publishing and Distribution
- B.M. Holt. Mahdia in Sudan. (Jamil Obaid, translators)
- Bashir Koko Hamida. (1969). Pages from Turkish and Mahdia. Khartoum : Dar Al-Irshad

- Renovan. (1948). The origins of the Fashoda campaign. (Mohamed Mustafa Safwat, translators)
- Hala Al-Ali and Aqeel Nameer. (undated). Congo-Nile campaign 1896-1898. Damascus University Journal for Historical Studies
- Raouf Abbas Hamed. Modern History of Africa
- Zenati Amer. (June, 2018). The British occupation of Sudan 1899. Journal of Legal and Social Sciences, University of Zayan Ashour in Djelfa, page 635.
- Sir Winston Churchill. (2002). The River War: History of the Mahdist Revolution. (Ezz El-Din Mahmoud, Translators) Egyptian General Book Organization.
- Shawky camel. (2008). History of Sudan and the Nile Valley (its civilization and its relationship with Egypt from ancient times to the present). Cairo: Anglo-Egyptian Library.
- Shawqi Atallah al-Jamal and Abdul Razzaq Ibrahim Abdullah. Modern and Contemporary History of Africa (Volume II). Riyadh: Dar Al-Zahra.
- Shawqi Atallah al-Jamal and Abd al-Razzaq Abdullah. (2000). History of Europe from the Renaissance to the Cold War. Cairo: Egyptian Office for Publications Distribution
- Abdel Halim Al-Ghamrawi. (1916). History of the life of Lord Kitchener. Egypt: Knowledge Press.
- Abdul Razzaq Ahmed Al-Sanhouri. (1949). The Nile Valley Issue, Egypt and Sudan. Cairo: Amiriya Press.
- Abdullah Hussein. (1935). Sudan from ancient history to the journey of the Egyptian mission (version part two). Egypt: Rahmaniya Press.
- Ali Ibrahim Abdo. Fashoda crisis of 1898.
- Muhammad Saeed Al-Qaddal. (1992). Imam Mahdi Muhammad Ahmed bin Abdullah 1844-1885. Beirut: Da R Generation .
- Muhammad Saeed Al-Qaddal. (2018). Modern History of Sudan 1820-1955 (Volume III). Khartoum: University of Khartoum Printing and Publishing House.
- Mohamed Sabri. (1991). History of Egypt from Muhammad Ali to the modern era. Cairo : Madbouly Library
- Mahmoud Fahmi Al-Noqrashi. (A1947). The Nile Valley issue.
- Noam Bey Choucair. Sudan's ancient and modern history and geography. Egypt: Knowledge Press.
- Nagham Abdulhadi Mahdi. (April, 2023). The Fashoda crisis of 1898 and its impact on British-French relations. Journal of Studies in History and Archeology.
- Yousra El Gohary. (1980). North Africa (Vol. 6). Alexandria: University Publishing House.
- Younan Labib Rizk. Little Fashoda 1899-1906